قراءة في فقه العيش مع الآخر في المذهب الحنبلي

إعداد

مسفر بن علي القحطاني

استاذ أصول الفقه المشارك بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالسعودية

مقدمة :

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد.

فالحديث عن التعايش المذهبي في عصر ثورة التواصل المعرفي بات مهما وملحّا من حيث التناول والإهتداء ، فالحاجة المعاصرة للتعايش المذهبي قد لا تكون راجعة للتراث الفقهي العظيم الذي خلّفه السلف الأوائل وإن كان ملهما من حيث الاجتهاد والاقتداء ،ولكن أجد من وجهة نظري أن الحاجة أعمق في معرفة قواعد التعايش التي خلّفوها لأتباعهم خصوصا في لحظات التداخل الظرفي بين المذاهب زمانا أو مكانا من أجل الإهتداء بهذا الأدب الرفيع والفقه العميق،فشواهد الإئتلاف بالرغم من عمق الاختلاف الفروعي ،تؤسس في ذهن الأجيال اللاحقة التي تداخلت كل الظروف والمعطيات التواصلية بين المذاهب والمشارب والتيارات إلى ضرورة استلهام أدب التعايش وفقه التحاور و حفظ القلوب من الشتات والتباعد ،وفي هذا مغنم كبير في تكوين بيئة خضراء منفتحة للاختلاف الذي لا يفسد الود ولا يُذهب العلم ،و لو تم التركيز على هذا المعنى وتأصيل مفاهيمه وتنزيلها على واقعنا اليوم لتربت أجيال المسلمين على فقه العيش وتعزيز قيم التراحم وتأصيل مبدأ التعارف بين الشعوب والقبائل والمذاهب والطوائف .

وهذه الورقات أردت في تقديمها لهذا المؤتمر المبارك أن أبين معالم التعايش عند الحنابلة وفقه الإئتلاف مع خصومهم من المذاهب الآخرى ،كما حاولت أن أرصد أهم إشكالية في توتير العلاقة بين الحنابلة وأتباع المذاهب الآخرى ،ضاربا المثل بأحد أعلام المدرسة الحنبلية ودوره الرائد في ذلك .

وأحب أن أتقدم بالشكر لجامعة الملك فهد للبترول والمعادن التي دعمت مشاركتي في هذا المؤتمر ،كما أقدم الشكر الجزيل لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية العمانية على دعوتي واستضافتي لهذا المؤتمر .

وختاما ..أدعو الله أن يوفقني لمرضاته ويصلح نيتي للقبول ويسددني بالصواب من القول والعمل .

والله تعالى أعلم وأحكم وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين .

كتبه

مسفر بن علي القحطاني

الظهران–مارس ٢٠١٣م

المبحث التمهيدي : الحنابلة في التاريخ الإسلامي وشبهة التشدد في الخصومة

الحنابلة هم أتباع المذهب الحنبلي ، وهم من فقهاء الأمة وعلمائها ، الذين لهم قدم صدق في دين الله ، سموا بذلك نسبة لإمامهم وقدوتهم الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله تعالى صاحب المذهب.

وتاريخ الحنابلة تاريخ مشرق مشرف كانوا ولا يزالون يقومون في وجه الفساد والظلم وتخاذل السلطان ،يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينشرون السنة ويحاربون البدعة ، فوقفوا في وجه المعتزلة في قضايا التأويل ، ووقفوا في وجه الشيعة في قضايا خلاف الصحابة وإنكار بعض السنن ، واصطدموا بالأشعرية في معارك كلامية طويلة ، وقد اشتهر عنهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال إسحاق بن أحمد العلثي الحنبلي رحمه الله " : وما زال أصحابنا يجهرون بصريح الحق في كل وقت ولو ضُربوا بالسيوف ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يبالون بشناعة مشنع ، ولا كذب كاذب ، ولهم من الاسم العذب الهني ، وتركهم الدنيا وإعراضهم عنها اشتغالاً بالآخرة : ما هو معلوم معروف "[1].

وكانوا ينكرون على الملوك والسلاطين والأمراء ، بل وعلى الخلفاء ، ويكتبون لهم في الأمر يرونه مخالفا للشرع ، ويقومون بالحسبة ، فداروا في الأسواق وأراقوا الخمور وحطموا آلات الطرب ، بحسب تقدير المصلحة والمفسدة في ذلك ، وكانوا مع ذلك كله زهادا فقراء لا يستشرفون إلى مناصب الدنيا.

وقال الحافظ ضياء الدين المقدسي رحمه الله : " كتب بعضُهم إلى أبي الوفاء بن عقيل يقول له : صِف لي أصحابَ الإمام أحمد على ما عرفت من الإنصاف. فكتب إليه يقول: هُم قوْم خُشُنٌ ، تقَلّصتْ أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجدّ ، وقلّ عندهم الهزل ، وغربتْ نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا عن الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرّجًا عن التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة ، فلم يدققوا في العلوم الغامضة ، بل دققوا في الورع ، وأخذوا

---

[1]) "ذيل طبقات الحنابلة" ص ٢٦٩

ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا: الله أعلم بما فيها، من خشية باريها ، لم أحفظ على أحد منهم تشبيهًا ، إنما غلبت عليهم الشناعة لإيمانهم بظواهر الآي والأخبار، من غير تأويل ولا إنكار، والله يعلم أنني لا أعتقد في الإسلام طائفة محقة ، خالية من البدع ، سوى من سلك هذا الطريق "[٢] .

وكان أهم ما اتصفوا به التزامهم منهج السلف الصالح في كل شيء ، وخاصة في المسائل الاعتقادية كمسائل الأسماء والصفات ، فيثبتون لله تعالى أسماءه وصفاته من غير تحريف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل .

وكان فيهم من علماء الفقه والحديث والتفسير والعقيدة واللغة أئمة هدى وصلاح ، منهم أبو بكر الأثرم ، وأبو بكر المروزي ، وأبو بكر الخلال ، وأبو بكر عبد العزيز ، وأبو داود السجستاني ، وأبو الحسن التميمي ابن حامد ، وأبو يعلى ، وابن عقيل ، وأبو القاسم الخرقي ، وعبد الغني المقدسي ، وأبو محمد بن قدامة ، وغيرهم كثير.[٣]

المبحث الأول : التعايش بين الحنابلة والمذاهب الأخرى.

المدرسة الحنبلية من مؤسسها الأول الإمام أحمد بن حنبل وكانت تعتبر نفسها إمتدادا لفقه الصحابة والتابعين ونهلا من أصول الاستدلال الثابتة من الكتاب والسنة ، وتفردها ببعض الأصول مبني على طبيعة فقههم لمنهج الاجتهاد الذي رسمه السلف الأول

والتعايش بين الحنابلة وغيرهم من فقهاء المذاهب الأخرى يمكن تصنيفه على النحو التالي :

---

[٢])المرجع السابق ص ٦١

[٣]) انظر بعض المراجع في معرفة تاريخ الحنابلة : المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل" للعلامة عبد القادر بن بدران الدمشقي ، وهو من أفضل الكتب في أصول المذهب والتعريف به باختصار. طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى ،والذيل على الطبقات لابن رجب الحنبلي. سنوات الحنابلة" لعلي بن محمد آل بابطين .

أولا : التوافق المذهبي في التأصيل الفقهي

نجد أن أصول الحنابلة مع غيرهم من المذاهب الأربعة وبعض المجتهدين المستقلين تكاد تكون متفقة على العودة إلى الكتاب والسنة والاجماع والقياس وقول الصحابة والمصالح وسد الذرائع وغيرها ،وهذا يعني توافقا في الأصول حتى لو تباينت الإراء في بعض القواعد الأصولية والفروع الفقهية . وهذا يعتبر تميز بديع يتميز به كل إمام في عصره من طريقة في فهم النصوص وسلوك منهج واضح في الاجتهاد عند حدوث المسائل والواقعات ؛ ولهذا كان أهل المدينة يتبعون في الأكثر فتاوى ابن عمر ــ رضي الله عنه–، وأهل مكة فتاوى ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ وأهل الكوفة فتاوى ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ وعن هؤلاء أخذت الأمة مناهجها في النظر والاجتهاد .

يقول الإمام ابن القيم: " والدين والفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود وأصحاب زيد بن ثابت وأصحاب عبد الله بن عمر وأصحاب عبد الله بن عباس ؛ فعِلمُ الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن عباس ، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود "[٤] .

وعلى هذا الحال السديد جرت أحوال من بعدهم من التابعين وتابعيهم ومنهم الأئمة الأربعة على السير في ركب سلفهم الصالح في نشر الخير والهدى والبر والتقوى والعلم والفقه ؛ بالتبليغ والتنقيح والعناية الفائقة في النظر والاستنباط ، فظهر فضلهم واحتوشهم الطلاب وكثر حولهم الأصحاب وتنافسوا في جمع أقوالهم وفتاواهم وتصنيفها وتأصيلها والتقعيد لها حتى بلغ أثر كل منهم مبلغاً واتُخذ ذلك مذهباً وصاحبه إماماُ .

([٤]) إعلام الموقعين ١ /١٧ .

فبرز فقه الأئمة الأربعة وترسخ على مر الأعوام واعتناء الطلاب والأتباع وأصبحت مذاهبهم وطرقهم في النظر والاجتهاد مشاعل نور وهداية يستضيء بها من جاء بعدهم من الأئمة والمجتهدين .

ويمكن القول أن المناهج الفقهية في النظر والاجتهاد قد تأسست وأصبحت لها معالم واضحة في البحث والاستنباط بعد القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع ومنها المذاهب الأربعة وغيرها [٥] .

وبعد منتصف القرن الرابع نشطت حركة التدوين الفقهي للمذاهب الأربعة والتصنيف في ذلك ، ويعلل ذلك الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله بقوله :((فإن تدوينها ــ أي المصنفات الفقهية لكل مذهب ــ قد سهّل على الناس تناولها والناس دائماً يطلبون السهل اليسير دون الصعب العسير ، وقد كان يدفع الناس إلى الاجتهاد في العصور السابقة ضرورة ملجئة إلى تعرف أحكام حوادث وشئون جديدة لا يعرفون حكمها الشرعي فلما جاء المجتهدون في الأدوار السابقة ودونوا أحكام الحوادث التي عرضت والتي يحتمل عروضها ، صار الناس كلما عرضت لهم مسألة وجدوا السابقين قد تعرضوا لها ، فاكتفوا بمقالهم في شأنها ، فسدّت حاجتهم بما وجدوا ، فلا حافز يحفزهم إلى بحث جديد .

وساعد على ذلك ما للأقدمين من موقع علمي كبير جدير بالتقدير وما يكسبهم تفوقهم على مضي الزمن من إجلال ، وما يكون من عناية الأمم بتكريم سلفها الصالح ليرتبط حاضرها بماضيها برباط متين ، لهذا كله انصرف الناس إلى التقليد ، اللهم إلا في تعرف علل الأحكام المذهبية أو ترجيح بعض الآراء في المذهب نفسه على غيرها . ويسمى من أُوتي القدرة العلمية على ذلك : مجتهداً في المذهب)) [٦].

---

(٥) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان ص ١١٨ – ١٢١ .

(٦) المدخل الفقهي العام ١ / ١٧٩ .

ولا يفهم مما مضى أن جل فقهاء هذه الفترة قد أخلد إلى التقليد بل كان في كل مذهب من أهل الاجتهاد المطلق الذي لم يقلد ولكن سلك طريق إمامه في الاجتهاد .

ويبين هذه الحقيقة الإمام السيوطي بقوله :"والصحيح الذي ذهب إليه بعض أصحابنا وهو أنهم صاروا إلى مذهب الشافعي لا تقليداً له بل وجدوا طريقه في الاجتهاد والقياس أسدّ الطرق ولم يكن لهم بدّ من الاجتهاد فسلكوا طريقه وطلبوا معرفة الأحكام بطريق الشافعي ... ثم فتوى المفتي في هذه الحالة كفتوى المستقل في العمل بها والاعتداد بها في الإجماع والخلاف "[٧].

ولهذا استقرت مناهج الأئمة الأربعة على أنها طرق للنظر والاستنباط في بحث أحام النوازل والمستجدات وذلك لاستيعابهم لسائر أساليب المتقدمين مما لا يسع أحداً جاء بعدهم أن يحدث طرقاُ تختلف كلية عما قرروه وبينوه من أصول وقواعد .

والإمام أحمد لم يختلف في منهجه عمن سبقه من الأئمة في الاحتجاج بالنصوص واعتبار فقه الصحابة والتابعين إلا أنه متميز ــ رحمه الله ــ بالأخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف المنجبر إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه ؛ وهو الأصل الذي رجحه على القياس .[٨]

يقول عن ذلك تلميذ الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ أبو بكر الأثــرم: "رأيت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، فيما سمعنا منه من المسائل إذا كان في المسألة عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث لم يأخذ فيها بقول أحد من الصحابة ولا من بعده خلافه ، وإذا كان في المسألة عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قول مختلف تخيّر من أقاويلهم ،ولم يخرج عن أقاويلهم إلى قول من بعدهم ، وإذا لم يكن فيها شيء عن النبي صلى الله

([٧]) الرد على من أخلد إلى الأرض ص١١٤ .

([٨]) انظر : أصول مذهب الإمام أحمد د . التركي ؛ المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد د . بكر أبو زيد ١ / ١٤٩ –١٥٨ ؛ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤١-٤٥ ؛ إعلام الموقعين ١ / ٢٤-٢٧ ؛ مقدمة في الفقه د . سليمان أبا الخيل ص١٧٠-١٧٣ ؛ المدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية د . الأشقر ص ١٥٣ ؛ تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة٢/٥٢٨ ؛ الفكر السامي٢ / ٢٥-٢٧ ؛ الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه د . سيد محمد موسىص٨٢-٨٧ ؛ المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية د . زيدان ص ١٤٣ .

عليه وسلم ، ولا عن أصحابه قول تخير من أقاويل التابعين وربما كان الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده شيء فيأخذ به ، وإذا لم يجد خلافه أثبت منه ، مثل حديث عمرو بن شعيب وحديث إبراهيم الهجري ، وربما أخذ بالحديث المرسل ، إذا لم يجئ خلافه))[٩] .

ثانيا: التواصل المعرفي والنَسَبي بين أئمة المذاهب .

فالإمام أحمد قد أخذ من عدد من الأئمة الفقهاء الكبار مثل ابو يوسف تلميذ أبي حنيفة النعمان وأخذ عن الإمام الشافعي ولزمه وكذلك عن سفيان بن عيينه و ابن عليه وأبن المبارك وعبدالرزاق الصنعاني ، وهذا التنوع يؤكد التواصل المعرفي والفقهي الذي كان يربط الإمام أحمد مع بقية شيوخ المذاهب الأخرى.

وعلى ذلك سار أئمة المذاهب في الطبقات الأولى من حيث الأخذ من بعضهم والطلب المتبادل بينهم .

ثالثا: التعايش الفقهي بين الحنابلة وبقية المذاهب .

التعايش الفقهي بين الحنابلة والمذاهب الأخرى مر بلحظات مدّ وجزر في العلاقة ،كان أهم تلك الأسباب :

١- البُعد السياسي في الخلاف وتحوله إلى سلطة ونفوذ تعزز وجود الفقهاء في السلطة أو تخرج مخالفيهم منها ، وقد تكررت تلك الحالة في فترة يكون الحنابلة هم من يقمع المخالفين كما حدث في عهد المتوكل العباسي ، أو أن يكونوا ضحية كما حصل في عهد الإمام أحمد بن حنبل مع المأمون والمعتصم والواثق ،ثم ما حصل مع ابن تيمية والمماليك في مصر والشام من إيذاء وإذلال واعتقال [١٠]، وبغداد كانت الأشد وضوحا في الصراع خصوصا

([٩]) الفقيه والمتفقه ١ / ٥٣٤ .

([١٠]) انظر : ما حصل لابن تيمية مع ابن مخلوف المالكي وبعض الفقهاء الاخرين وفتنة الاثبات بدون تشبيه أو تمثيل وفتوى الطلاق بالثلاث ، الدرر الكامنة ١١\١٥٤

في فترة تولي بعض الشيعة الوزارة ما جعل الحنابلة بقيادة بعض محتسبيهم القيام بالإنكار على بعض مراثي افمام الحسين وما يفعل في المقابر من شرك وغيرها من صور أدت غلى مواجهات دامية مستمرة خلال القرن الرابع الهجري.[١١]

٢- تحول الخلاف الفقهي إلى مفاصلة عقائدية ، تقتضي الحكم على المخالف بالضلال والبدعة ، وهذا ماجعل التعايش يفقد حيويته في فترة الصراع بين الحنابلة والمعتزلة وبينهم والأشاعرة .وهذا ما حصل في فتنة ابن القشيري عام ٥١٤ه في مواجهة ابوجعفر العباسي الحنبلي حيث وصف الأول الحنابلة بأنهم مجسمة وحشوية مما أدى إلى تعدي بعض الحنابلة عليه،ما أدى إلى إغلاق المدرسة النظامية بسبب المواجهات الدامية بين اتباعهما .[١٢]

ومما يروى في ذلك أن أباحاتم بن خاموش فقيه أهل الري في عهد محمود بن سبكتكين كان يقول من لم يكن حنبليا فليس بمسلم [١٣]، ولاشك أن هذا الأمر مؤداه إلى الضلال بسبب شناعة التكفير للمخالف على أساس الإنتماء المذهبي.

٣- عدم وجود علماء كبار يرجع إليهم الأتباع ويخففون تغول الصراع وتحوله إلى مواجهات دامية ، بل كان هناك صمت أو تشجيع أما الكبار من الفقهاء أهل الحكمة والفقه فكانوا يرفضون تلك الممارسات ،كما حصل في بغداد في

---

[١١]) البداية والنهاية ١١\٢٠٦ .

[١٢]) المنتظم لابن الجوزي ١٧\١٩١

[١٣]) سيراعلام النبلاء ١٧\٦٢٥

سنة ٣١٧ هـ حيث وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين اصحاب ابي بكر المروزي الحنبلي وبين غيرهم من العامة ودخل كثير من الجند فيها، وسبب ذلك ان اصحاب المروزي قالوا في تفسير قوله تعالى: "عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" هو أن الله سبحانه يقعد النبي صلى الله عليه واله معه على العرش وقالت طائفة إنما هو الشفاعة، فوقعت الفتنة فقتل بينهم قتلى كثيرة.[١٤]

٤- التعصب المذهبي الذي تفشى في القرن الرابع والخامس خصوصا في العراق ،فقد تحولت بعض المناطق إلى ساحات قتال وصراع بين العوام المتعصبين لأئمتهم ومذاهبهم . قال ابن الأثير ": وفيها أي سنة ٣٢٣هـ عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون من دور القواد والعامة و إن وجدوا نبيذا أراقوه و إن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشْي الرجال مع النساء والصبيان فإن رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو فأخبرهم و إلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وأرهجوا بغداد فركب بدر الخرشني وهو صاحب الشرطة عاشر جمادى الآخرة ونادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاري الحنابلة ألا يجتمع منهم اثنان ولا يتناظروا في مذهبهم ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشائين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه

---

[١٤]) تاريخ بغداد ٥\١٢١

بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم "[١٥]

والسؤال الان هل الحنابلة جميعا كانوا على هذه الشاكلة من التشدد والتنفير؟

الجواب أن الحنابلة الذين ظهر منهم هذا البغي في الخلاف أو ما يحكى عنهم الشدة في الاحتساب ،لا يمثلون كل الحنابلة فهناك أكثر من سبعة وعشرين كتابا يجمع تراجم الحنابلة وفي عدد من الأقطار الإسلامية في الحجاز والعراق والشام وفلسطين ومصر ونجد وغيرها ،ولم يعرفوا بهذا الوصف من التشدد، كما أن الحنابلة نافحوا عن معتقد أهل السنة وحصل لهم بسبب ذلك عدة إبتلاءات ومحن سياسية مما جعلهم مستهدفون من السلطات آنذاك تحذيرا وتشويها،فجاءت بعض تصرفاتهم كردة فعل لهذا المواجهة لهم.

يقول القاضي ابو يعلى :" الحنبلية على ثلاثة أصناف :

صنف زهاد يصومون ويصلون ، وصنف يكتبون ويتفقهون ، وصنف يصفعون كل مخالف "[١٦]

كما غلب على الحنابلة الورع والبعد عن المناصب وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وهذه السلوكيات في الغالب تجعل أصحابها في عداء مع الكثير من أصحاب السلطة الفقهية والسياسية.

رابعا: التمازج التجديدي بين الحنابلة وبعض الفقهاء .

حصل هذا التمازج والتوحد الإصلاحي في بعض الفترات التاريخية عندما شكل شيخ الإسلام ابن تيمية فريقا من المجددين المصلحين في المجال الفقهي قاموا بجهود مشكورة في حفظ السنة ونبذ التعصب والتصنيف الابداعي لعدد من الموضوعات

---

[١٥])تاريخ ابن الأثير ٨\٣٠٨

[١٦]) طبقات الحنابلة ٣/٧٦.

وأقصد بهولاء المتأثرون بابن تيمية ،أمثال الذهبي وابن كثير وابن القيم وابن حجر وغيرهم ممن يمثل مدارس فقهية مختلفة ومع ذلك ينسبون لمدرسة التيمية.
وفي عصرنا الحاضر برزت فكرة التقريب بين المذاهب لتخفيف التعصب وبناء جسور التلاحم بين المسلمين ، إلا أنها لا زالت في إطارها النظري والنخبوي ولم تنزل للميدان الفقهي والتدريسي ،مع وجود عدد من المشككين والمحذرين من هذه المبادرات .

المبحث الثاني :موقف الحنابلة من الشيعة والمتصوفة .

أولا : موقف الحنابلة من الشيعة .

يتلخص موقف الإمام أحمد وأتباعه الكبار من الشيعة في النقاط التالية:

- انصرف أحمد يجمع السنن وآثار الصحابة، وبحث من خلالها عن أحكام تنقذ الناس من الضلال ،وكان يجمع ما رواه الصحابة من أحاديث، كل على حدة، ويسند إلى الصحابي ما رواه ،فكان لابد أن يجمع ما رواه الإمام علي بن أبي طالب لا يبالي في ذلك أن يتهمه أحد بالتشيع أو بالميل إلى العلويين ،وفي الحق أنه ما كان متشيعا ولا صاحب ميل للعلويين ،ولكنه تقرر لديه أن الإمام علي كان أحق بالخلافة من معاوية، وأن معاوية كان باغيا، ودافع أحمد عن رأي أستاذه في مواجهة منتقديه ، وقد روى أحمد عن شيخه الشافعي: "قال رجل في علي: ما نفر الناس منه إلا أنه كان لا يبالي بأحد. فقال الشافعي كان في علي كرم الله وجهه أربع خصال لا تكون منها خصلة واحدة لإنسان إلا يحق له ألا يبالي بأحد، كان زاهدا، والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها، وكان عالما، والعالم لا

يبالي بأحد، وكانوكان عالما، والعالم لا يبالي بأحد، وكان شجاعا والشجاع لا يبالي بأحد، وكان شريفا والشريف لا يبالي بأحد. وكان علي كرم الله وجه قد خصه النبي صلى الله عليه وسلم بعلم القرآن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام دعا له وأمره أن يقضي بين الناس. وكانت قضاياه ترفع ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيمضيها."

- لاحظ الإمام أحمد في عصره أن بعض الفقهاء يفضلون العباس على الإمام علي بن أبي طالب، نفاقا للخلفاء والأمراء من بني العباس ، وسمع الإمام أحمد ، أحد الفقهاء يذكر الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجه بما لا ينبغي، ويشكك في حقه في الخلافة، فأنبري أحمد يقول للفقيه على مشهد من المشهد من الناس: "من لم يثبت الإمامة لعلي فهو أضل من حمار، سبحان الله! .. أكان علي كرم الله وجهه يقيم الحدود ويأخذ الصدقة ويقسمها بلا حق وجب له!؟ .. أعوذ بالله من هذه المقالة .. بل هو خليفة رضيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلوا خلفه، وغزوا موجاهدوا، وحجوا، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين راضين بذلك غير منكرين، فنحن له تبع" .. ثم قال: "ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه".

- انّ ظروف الملاحقة والارهاب وأجواء المراقبة الشديدة لأئمة أهل البيت؛ حالت دون حدوث لقاء بينهم وبين الإمام أحمد، فقد كان هو الآخر يعيش محنة حقيقية، ولكنّ عدم اللقاء وعدم الاجتماع لا يعني وجود تقاطع أو تدابر بل انّ الحب والتقدير والتكريم كان قائماً، وكان كثير العلاقة مع عموم العلويين، حتى قيل للمتوكّل انّه يأوي العلويين ويدعو الى بيعتهم، وقد فتش منزله للتأكد من ذلك.

وكان يدافع عن عليّ بن أبي طالب في عهد المتوكل الذي عرف بمعاداته لأهل البيت، وقد قال في حقّه وحقّ أهل البيت:"انّ الخلافة لم تزيّن علياً، بل عليّ زينها".وقال ايضا :"ما جاء لأحد من الصحابة من الفضائل مثل ما لعليّ بن أبي طالب".

والدفاع عن أهل البيت (عليهم السلام) ونشر فضائلهم في عهد المتوكل وغيره يدل دلالة واضحة على حبّه لهم وموالاتهم.

- أخذ الإمام أحمد الرواية من عدد ممن عرفوا بالتشيع وقد ذكرهم ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ، كما أورد هذا الحديث الذي نقله الخطيب بقوله بسنده :-" أن عبد الرحمن بن صالح الشيعي كان يغشى أحمد بن حنبل فيقربه أحمد ويدنيه فقيل له : يا أبا عبدأله ،إنه رافضي فقال : سبحان الله ؟رجل أحب قوما من أهل بيت النبي (صلى أله عليه وآله وسلّم) نقول له لا تحبهم : هو (ثقه)"[١٧]. أما العلماء الذين أخذعنهم ألامام أحمد منهم -:

اسماعيل بن أبان الازدي أبو أسحاق الكوفي ،واسحاق بن منصور السلوي أبو عبد الرحمن الكوفي (خرّج حديثه أصحاب الصحاح السته) ،و تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي روى له الترميذي في صحيحه وقال فيه أحمد : أن مذهبه التشيّع ولم أر به بأسا ،والحسين بن الحسن الفزاري أبو عبدالله الاشقر الكوفي خرّج له النسائي، وخالد بن مخلّد القطواني أبو الهيثم وكان من كبار شيوخ البخاري وخرّج حديثه في صحيحه ومسلم والنسائي ومالك بن أنس في مسنده.

---

[١٧])تاريخ بغداد ٢٦١/١٠.

واعتقد ان التشيع المقصود هنا التشيع الأول المبني على تفضيل الإمام علي على الخليفة عثمان مع بعض الخلاف في ما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم جميعا ،كما لا ينبغي ان نفهم أن موقف الحنابلة كان موقف الموافقة دائما ،فالإمام أحمد مع صراحة موقفه في مدح آل البيت والثناء عليهم ،مع ما يسببه له هذا الموقف من حرج سياسي إلا أنه آثر النطق بالحق ، وبيان موقفه القيمي والديني من آل البيت ،ثم إن الإمام أحمد كان لايرى الخروج على الإمام بالسيف وهو كذلك موقف قيمي خالف فيه الشيعة أيضا ،كما خالفهم في كثير من المسائل العقدية في الصحابة والإلهيات والولاية وغيرها.

ثانيا: موقف الحنابلة من الصوفية .

كان للحنابلة وعلى رأسهم الإمام أحمد موقف واضح من الصوفية ،ظهر على شكلين أثنين :

الأول : رفض بعض الممارسات الصوفية التي يغلب عليها الوجد والحال الغنوصي ، وأبرز من كان له موقف يخالف فيه بعض ممارساتهم واجتهاداتهم المحاسبي والسري السقطي وذو النون المصري ،وهو لا يخالفهم في أصل التصوف ،ولكنه يرفض الزيادات التي لحقت بالتصوف ولم تكن على نهج السلف الأول من الصحابة والتابعين .

الثاني : موقف الموافقة والتأييد للتصوف الوليد المقيد بأصول الشرع والعقيدة مثل إشادة الإمام أحمد ببشر الحافي وهو صوفي معروف في كتب التراث ، كما صنف هو كتاب الورع والزهد ، ولا يخفى أن عدد من أئمة الحنابلة في القرن الرابع والخامس والسادس كانوا من كبار المتصوفة مثل عبدالقادر الجيلاني وابن الجوزي .

المبحث الثالث :فقه الحنابلة .. وإشكالية تداخل سعة الاجتهاد بصلابة الاعتقاد

عقيدة المسلمين على مرّ العصور كانت ظاهرةً جليةً في توحيدها لله تعالى وسهلة و واضحةً في عرضها وتقريرها لأصول الاعتقاد ،لأنها الحق الجلي والمطلب الرئيس للنجاة يوم القيامة ، لذلك كانت أقرب للفطرة و أوفق للعقل و أدعى للإيمان ، هذه الأوصاف هي الأليق بالعقيدة التي يعتنقها الخلق على إختلاف أعمارهم ومعارفهم ومشاربهم وأجناسهم ، وأي مؤمن يعتقد ذلك في دينه ومقدسه في الغالب، وخروج النسق العقدي نحو تفاصيل علم الكلام وغموضه أو مجادلة أهل الفرق والملل وخصومهم ؛جعل علم العقيدة شأن الخواص من العلماء والفلاسفة ،وألزم مقرري علم الاعتقاد عند الشرح والتصنيف أن يدخلوا فيه من المسائل والقضايا التفصيلية مايحوّل الوضوح العقدي إلى غموض كلامي ميتافيزيقي، وما تحصل به النجاة من العقيدة يستلزم تقريرات لا تنتهي من المسائل التي دخلها الخلاف مثل دقائق الصفات الإلهية وخلق القرآن ورؤية الله تعالى في الدنيا والتوسل بالنبي عليه الصلاة والسلام بعد مماته والتبرك بآثاره والدجال والمهدي وطاعة ولي الأمر وسيادة الشريعة في ظل الديمقراطيات المعاصرة وغيرها من مسائل ،ثم وصل الأمر أن يُطلب من العامي في بعض المذاهب إظهار معتقده في الفرق الكلامية وهو لم يشهد سجالها ولا يعرف كنهها ،فيضطرب معتقده في تفاصيل قد تؤثر في إيمانه واطمئنانه.

لذلك تناول العقيدة وفق تقرير علمائها المتأخرين يختلف عن تناولها وفق التقرير القرآني والبيان النبوي المجسّد لحقيقة التوحيد والمحّذر من الشرك،وهذا الفرق الكبير في التناول جاء بسبب طريقة تناول الدفاع عن حياض العقيدة من خصومها بتطويل وتصعيب طريق الوصول لعقيدة النجاة وليس إلى تذليله وتيسيره.

هذا الخلاف والشغب الكلامي على العقيدة أدى إلى تكاثر علماء الاعتقاد وتسيدهم عدة مجالات تخصصية تتناول العقيدة وحمايتها ومدافعة الفرق المخالفة لها ؛ما أدى إلى حدوث مجال معرفي شامل يقرأ الشريعة وفق المنهج العقدي ويناقش المستجدات بروح الجدل الكلامي ويمنح المجادل في العقيدة طوباوية ومثالية تمنحه تصنيفا للخلق باعتبار

مآلهم الأخروي وليس عملهم الدنيوي ، فكانت النتيجة فتاوى توحيدية وفقه عقائدي ،أثمر في مشهدنا الإسلامي الكثير من الإشكاليات السلبية من وجهة نظري ،وأهمها :

أولا:مناقشة الخلاف الفقهي على أساس معتقد قائليه ،حتى لو كانت مسائل فقهية عملية ،مما يجعل المخالف في إحدى دائرتين أمام خصمه إما دخوله دائرة البدعة أو دائرة الكفر ،ظهر ذلك جليا في مسائل الخلاف بين الاشاعرة والمعتزلة في قضايا التكليف والجبر على الأفعال و المصالح العقلية وفق قاعدة التحسين والتقبيح،ولم ينته الأمر في الأجيال السالفة ؛بل انتقل في عصرنا الحاضر في مسائل عديدة مثل؛ النصح لولاة الأمر هل هو في العلن ام في السر ؟ وما يتعلق بمستجدات التحولات الديمقراطية في الوطن العربي، ماأدى إلى تفرق عقدي و رمي المخالف بالبدعة أو الكفر نتيجة ذلك الخلاف الفقهي في أصله . كما يلحظ أن بعض الفقهاء إذا أراد إقصاء مخالفيه وتعظيم قوله ؛ربط خلافه وأياهم ضمن المجال العقدي ليكون أدعى في ممارسة التحذير من مخالفيه وتسويغ الإتهام لهم، وبالتالي تهميش القول الآخر إلى قول مضاد للأهل السنة أو السلف.

ثانيا: تَجذّر فكرة إنقسام الدين إلى اصول وفروع عند الحكم على المخالف ،فهذا من أسباب اشكالية التداخل بين الفقهي والعقدي ،والظني والقطعي،والسعة والضيق ، فبعض الفقهاء والمتكلمين جعل العقيدة أصولا كلها ،والفقه فروعا كله، وهذا التقسيم من حيث الأصل سائغ ومقبول إلى حدٍما،ولكن من حيث البناء عليه تأثيما وتكفيرا لمن خالف في مسائل العقيدة أيا كانت درجتها هو من الأخطاء التي حذر منها بعض السلف، ومن أشهر من أظهر موقفه في هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قال في نص نفيس :"فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام ، وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها. فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع ، فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة الإسلام ، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم

من أهل البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم ، وهو تفريق متناقض ، فانه يقال لمن فرق بين النوعين : ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطئ فيها ؟ ، وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟ ، فان قال : مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد ومسائل الفروع هي مسائل العمل ، قيل له : فتنازع الناس في محمد هل رأى ربه أم لا، وفى أن عثمان أفضل من على أم على أفضل ، وفى كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية والعلمية ولا كفر فيها بالاتفاق". [١٨]. فالمجتهد عند ابن تيمية لا يحكم بكفره ولا بإثمه ما دام قد بذل جهده في الاجتهاد ولا فرق في ذلك بين ما يسمى أصول دين أو فروعه أو ما يسمى مسائل خبرية أو مسائل عملية ، ثم نبه على أن السلف لم يكونوا يتعاملون في مسائل التصويب بناءا على تقسيم الدين إلى أصول وفروع كما كان يفعل المتكلمون ،والإشكال أن القصور في فهم منهج السلف أورد المجتمعات الإسلامية الكثير من البغي والعدوان عند الخلاف ،لذلك المجتهد الذي بذل وسعه في حكم مسألة ولوكانت في مجال الاعتقاد لا يُسارع باتهامه وتأثيمه في شخصه، بينما مجال مناقشة الأفكار وتخطيئتها هو ميدان الحجج والبراهين، وهذا أمره واسع ومقبول، كما أن ربط الخلاف بمجاله العلمي والبرهاني دون تجاوزه إلى مآل الشخص الأخروي أمر متعين وجوهري في منهج البحث والاستدلال، وللإمام الشاطبي توضيح في هذه المسألة في قوله: "إن هذه الفِرَق إنما تصير فرقًا بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة لا في جزئية من الجزئيات إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشا عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعا و إنما تنشأ المخالفة في الأمور الكلية " [١٩]. واستيعاب هذه القاعدة قد يخفف لدى بعض مشتغلي العقيدة عِظم دائرة القطعيات التي تسوغ لهم الإنكار والتشديد على غيرهم،ولعل ما قاله الشيخ عبد الرحمن السعدي يصب في أهمية التأكيد على هذا المنحى التقريري في منهج السلف الصالح عندما قال: " إن المتأولين من أهل القبلة

---

[١٨]) مجموع الفتاوى ٣٤٦/٢٣

[١٩]) الاعتصام: ٢/ ٢٠٠,٢٠١

الّذين ضلوا وأخطأوا في فهم ما جاء في الكتاب والسنة مع إيمانهم بالرسول واعتقادهم صدقه في كل ما قال، وأن ما قاله كان حقًا، والتزموا ذلك لكنهم أخطأوا في بعض المسائل الخبرية أو العلمية، فهؤلاء قد دلّ الكتاب والسنة على عدم خروجهم من الدّين، وعدم الحكم لهم بأحكام الكافرين، وأجمع الصّحابة والتابعون ومن بعدهم من أئمة السلف على ذلك" [٢٠].

ثالثا : إشكالية تأثير الدرس العقدي على الفقهي من حيث غلبة الحسم والجزم في التحريم بشكل أكبر حتى لولم يظهر دليل التحريم بنصه، أو في ذكر الوجوب بشكل أقل حتى لو لم يظهر دليل اللزوم بعينه ، فالمشتغل بمسائل الإعتقاد يميل إلى حسم خلافه بالتحريم إذا كان في المسألة نهي دون أن يتحرج في إطلاق الحكم المانع بصورة جازمة لا تقبل التخفيف لإي خلاف وعدم التورع في ذكر التحريم المغلّظ في المتشابه من النصوص،بينما سلف الأمة كانوا يتورعون في اطلاق التحريم مع استقراره في فقههم ولكن لخوفهم من التألي على الله تعالى بالجزم بالتحريم ، لهذا كانوا يستبدلون لفظة الحرام بالكراهة أو لا يعجبهم أوغيرها من الالفاظ ، وقد نقل ذلك عن الإمام أحمد وغيره من السلف. [٢١] . هذه الإشكاليات السابقة وغيرها أعتقد أنها تسوّغ لنا ضرورة مراجعة وفحص خطابنا الفقهي وتداخل العقدي معه ،وإعادة الاعتبار لمنهجية النظر في الاجتهاد بين ماهو كلي وأصل ثابت في الشرع وبين ما يقبل النظر ويسع فيه الخلاف و يتعدد فيه الرأي ، وهذا سيسمح بوجود مناخ فقهي معتدل ومتسامح لايفرض توجهاته على الجميع كقوالب جامدة تضطر البعض إما للمواجهة أو الانسحاب وفي كلا الأمرين سنفقد ثراءً علميا وعطاءً معرفيا قد يسهم في علاج الكثير من معضلاتنا الحضارية .

---

[٢٠]) الإرشاد في معرفة الأحكام، مكتبة المعارف ص: ٢٠٧

[٢١]) انظر: الفروع لابن مفلح ٦٦/١ ،اعلام الموقعين ٣٩/١-٤١.

المبحث الرابع :أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي ..إنموذج التعايش الحنبلي

يعتبر ابن عقيل الحنبلي رحمه الله من أكثر الفقهاء نبوغا و تصنيفا و سعة اطلاع ، كذلك من أكثرهم إثارة للجدل في الوسط الفقهي والكلامي والسياسي ، هذه السيرة العطرة بالوقائع والأحداث لا تزال تثير الرغبة في قراءتها وتحليلها ،والدافع لكثير من دارسي هذا الإمام محاولة جمع أجزاء الصورة المختلفة والمتباينة لشخصيته من أجل فهم إدق وأعمق لمنهجه في التفكير والتعبير الديني .

أما الفترة التي عاشها ابن عقيل الحنبلي فقد كانت في القرن الخامس الهجري في الفترة من (٤٣١ هـ - ٥١٣هـ/ ١٠٤٠-١١١٩ م) أي في المرحلة الذهبية للفقه المذهبي ، كما أن إقامته في بغداد حاضرة العلم ومأرز العلماء والفقهاء قد جعلته من تلك النجوم السيّارة وفي عِداد الربانيين الأفذاذ ،قال ابن رجب عنه :" كان من أفاضل العالم وأذكياء بني آدم مفرط الذكاء متسع الدائرة في العلوم".[٢٢] ، ومع انتمائه للمدرسة الحنبلية وتأثره بأعلامها الكبار إلا أنه قد تميز عن فقهاء مذهبه وبقية المذاهب بصفات جعلت له فرادة عن غيره ربما حتى عصرنا الحاضر ،قال عنه الإمام الذهبي :" الإمام العلامة، البحر، شيخ الحنابلة، المتكلم، صاحب التصانيف، كان يتوقد ذكاءً، وكان بحر معارف، وكنز فضائل، لم يكن في زمانه نظير"[٢٣] ، ويمكن ذكر أهم الميزات التي

---

[٢٢]) ذيل طبقات الحنابلة ٦١/١.

[٢٣]) سيراعلام النبلاء ٤٣٣/١٩.

طبعت شخصية الامام ابن عقيل وأثارت عليه النقد والبلاء من بعض فقهاء عصره ، أوجزها فيما يلي:

أولا : طلبه العلم على أيدي علماء ومشايخ من مدارس مختلفة و مذاهب متنوعة مثل ابن الدامغاني وابو القاسم ابن برهان العكبري من الاحناف وابو الطيب الطبري وابو اسحاق الشيرازي والخطيب البغدادي من الشافعية وعدد من كبار علماء الصوفية في عصره كالقزويني وابو منصور العطار ، ما شكّل منه عقلية متميزة ومُناظِرة ، تفحص وتنتقد وتجادل بإسلوب منهجي نفيس ، وأغلب ما جاء في كتابه العظيم الفنون هو عبارة عن تلك المناظرات التي عقدها مع مخالفيه ، ويمكن الرجوع لكتابه (الجدل) وهو على طريقة الفقهاء ،لتتضح هذه المنهجية العقلية الفريدة في الاثبات والحِجاج. واستعمال المنطق في كتب ابن عقيل الأصولية تدل على إيمانه العميق باهميته في تجلية أدوات التحليل العقلي وضبط منهجية الاستدلال الاصولي من الانحراف بسبب التقليد أو العصبية ، وهذا المنحى العقلاني لدى ابن عقيل يعتبر من ميزاته الخاصة عن بقية الحنابلة في عصره ومن جاء بعده ،فهم وإن برزوا في مجال المناظرة العقدية إلا أنه خاضها بشمولها في الفقه والأصول والكلام .

ثانيا: برز من شيوخ الإمام ابن عقيل عدد من النساء اللاتي طلب العلم على أيديهن ، مثل ماشطة بغداد –كذا تكنى– والحرّانية وبنت الجنيد وبنت الغرّاد.[٢٤] ، وهذه الأمر لم يكن مستغربا في سير علمائنا الأوائل كون المرأة كانت تتعلم وتعلِّم وتشارك في مجالس العلم ،وذكر الإمام ابن عقيل بعض من درّسه من النساء ،فهي تأكيد على قيمة المرأة وتمكينها من مجالس العلم ،بالقدر الذي يتفشى فيه الخير دون أن يكون ذريعة للمنكر ، وكم استغرب أن يترفع الكثير من المترجمين المعاصرين عن ذكر تلك التوثيقات عن نساء السلف العالمات مع اهمية ذكره في إزالة شبه كثيرة عن دور المراة في الإسلام .

[٢٤]) مقدمة تحقيق الواضح في أصول الفقه لابن عقيل ،تحقيق عبدالله التركي ١١/١.

ثالثا: اشتغل ابن عقيل بمذهب المعتزلة، وأخذ علم العقليات عن شيخي الاعتزال أبي علي بن الوليد ، وأبي القاسم بن التبان صاحبي أبي الحسين البصري ، فتأول بعض صفات الله عزوجل وترحم على الحلاج وأراد الحنابلة قتله ، فاستجار بباب المراتب عدة سنين ، وكان يقول :" كان اصحابنا الحنابلة يريدون مني هجران جماعة من العلماء وكان ذلك يحرمني علما نافعا ،فأوذيت من أصحابي حتى طلب الدم " [٢٥]. إلى أن أعلن توبته ، بل كتبها بخطه سنة ٤٦٥هـ ، وشهد عليه جماعة من الشهود والعلماء ، إضافة إلى أنه ألّف في الرد على المعتزلة ونقض معتقدهم بما توصل إليه من يقين وحجة ، ولا أظن أن ابن عقيل أخفى معتقده في المعتزلة بسبب الضغوط المذهبية عليه ، بل قال رحمه الله فيمن استتابه:" أنهم مصيبون في الانكار علي ؛لما شاهدوه بخطّي من الكتب التي أبرأ إلى الله منها وأتحقق أني كنت مخطئا غير مصيب"[٢٦] ، لم يكن ينقص ابن عقيل حجة في الرد والإفحام على أحد يخالفه ،فقد كان فارس المضمار حتى ان الكيا الهراسي من علماء بغداد يطلب منه الترفق عند المناظرة، ولم يكن كذلك مقلدا لأحد بل متبعا للدليل موافقا لأصول الأمام أحمد ، لذلك أعتقد انه تراجع عن المعتزلة طواعية بعدما انكشف له الحق ، ودخل في مدرستهم أيضا برغبة ومقدرة على التمييز ، جعلت منه يفرق بين ما هو منه مقبول وما يستحق الرد ، ويمكن ان نصف ابن عقيل بانه متسع النظر في الاستفادة من كل من يرى فيه نفع وفائدة ،ومع شدة أصحابه الحنابلة على المعتزلة لم يمنعه ان يتعرف على ما عندهم من علوم إلى درجة أنهم كانوا ينهونه عن الأخذ منهم.

رابعا: مما تميز فيه الامام ابن عقيل كذلك ، إنكاره على الأمراء والسلاطين في عصره لفعلهم بعض المنكرات ،وقد ذكر ابن رجب عدد من رسائله إليهم .[٢٧] وهذا معهود عند

---

[٢٥]) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١٤٣/١

[٢٦]) المرجع السابق ١٤٥/١.

[٢٧]) المرجع السابق ١٤٧/١-١٥١.

الحنابلة قديما ، وربما كان لزهدهم بالدنيا وتقشفهم عن متاعها وشدة ورعهم أنهم كانوا يغلظون في الإنكار على مخالفيهم من الأمراء والعلماء ، وقد صرّح ابن عقيل أن هذه الأسباب وغيرها هي ما جعل مذهبهم ضعيف الانتشار بالمقارنة بأصحابهم من الحنفية والشافعية ، إلا أن له قول مفرد خالف فيه الكثير من الحنابلة وهو القول بالخروج على الإمام الظالم، و وافقه ابن الجوزي على ذلك ، وقد استشهد بخروج الحسين على يزيد لإقامة الحق ، بينما نصوص الإمام أحمد أنه لا يحلّ وأنه بدعة مخالفة للسنة ، كما أنه كان يأمر بالصبر ، وأنه إذا وقع عمت الفتنة ، وانقطعت السبل ، وسفكت الدماء ، وتستباح الأموال ، وتنتهك المحارم .[٢٨].

هذه المقدمات السابقة عن الإمام الجليل ابن عقيل تؤكد وجود فرادة علمية من حيث التوسع في الطلب والتنوع في الأخذ عن المدارس الكلامية والمتصوفة و اختيار الإتجاه الثوري في تعامله مع السلطة ،والخروج أحيانا عن المفهوم التقليدي لقول المذهب مما يجعله في حرية الترجيح عندما يرى قوة الدليل تلوح في تفكيره ، وقد أُنكر عليه في قولٍ ليس في مذهبه الحنبلي ،فقال:" أنا لي اجتهادٌ، متى ما طالبني خصمي بحجة كان عندي ما أدفع به عن نفسي ، وأقوم له بحجتي" وكان يقول :"الواجب اتباع الدليل ،لا اتباع أحمد" [٢٩]. ومع هذا فكان شديد الاحترام والتقدير لأصحابه الحنابلة حتى في أشد أوقات الخلاف بينهم ، لذلك كان التذكير بهذه القامات الفقهية مهمٌ في أوقاتنا المعاصرة من أجل تنشيط الفعل التجديدي والتفكير الفقهي الإبداعي الذي يستلهم تجارب الأوائل ويستفيد من منهجيتهم الاستدلالية في وضع حلول لأزماتنا الفقهية والفكرية الراهنة ، وابن عقيل وقد مرّ على ولادته قرابة ألف عام لا يزال علمه لم يبحث بتوسع ما يجعله مستحقا أن يفرد بدراسة معمقة وتحليل دقيق لعقله الوفيّ لدينه وأمته ،لهذا كان لأسمه نصيب من إبداعه العقلي.

---

[٢٨]) انظر: الفروع لابن مفلح ١١\٣١٦.

[٢٩]) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٥٧.

ختاما :

أسأل الله عز وجل أن أكون وفقت في تقديم بعض الأفكار الهامة حول موقف الحنابلة من التعايش مع الآخر ،فما أصبت فمن الله وحده وما أخطات فمن نفسي والشيطان .والله تعالى أعلم وأحكم .

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه وسلم .

قراءة في فقه العيش مع الآخر في المذهب الحنبلي

ملخص للورقة العلمية

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد.فالحديث عن التعايش المذهبي في عصر ثورة التواصل المعرفي بات مهما وملحّا من حيث التناول والإهتداء ، فالحاجة المعاصرة للتعايش المذهبي قد لا تكون راجعة للتراث الفقهي العظيم الذي خلّفه السلف الأوائل وإن كان ملهما من حيث الاجتهاد والاقتداء ،ولكن أجد من وجهة نظري أن الحاجة أعمق في معرفة قواعد التعايش التي خلّفوها لأتباعهم خصوصا في لحظات التداخل الظرفي بين المذاهب زمانا أو مكانا من أجل الإهتداء بهذا الأدب الرفيع والفقه العميق،فشواهد الإئتلاف بالرغم من عمق الاختلاف الفروعي ،تؤسس في ذهن الأجيال اللاحقة التي تداخلت كل الظروف والمعطيات التواصلية بين المذاهب والمشارب والتيارات إلى ضرورة استلهام أدب التعايش وفقه التحاور و حفظ القلوب من الشتات والتباعد.والمدرسة الحنبلية من مؤسسها الأول الإمام أحمد بن حنبل وكانت تعتبر نفسها إمتدادا لفقه الصحابة والتابعين ونهلا من أصول الاستدلال الثابتة من الكتاب والسنة ، وتفردها ببعض الأصول مبني على طبيعة فقههم لمنهج الاجتهاد الذي رسمه السلف الأول .

والتعايش بين الحنابلة وغيرهم من فقهاء المذاهب الأخرى يمكن تصنيفه على النحو التالي :

أولا : التوافق المذهبي في التأصيل الفقهي

نجد أن أصول الحنابلة مع غيرهم من المذاهب الأربعة وبعض المجتهدين المستقلين تكاد تكون متفقة على العودة إلى الكتاب والسنة والاجماع والقياس وقول الصحابة والمصالح وسد الذرائع وغيرها ،وهذا يعني توافقا في الأصول حتى لو تباينت الإراء في بعض القواعد الأصولية والفروع الفقهية .

ثانيا: التواصل المعرفي والنَسَبي بين أئمة المذاهب .

فالإمام أحمد قد أخذ من عدد من الأئمة الفقهاء الكبار مثل ابو يوسف تلميذ أبي حنيفة النعمان وأخذ عن الإمام الشافعي ولزمه وكذلك عن سفيان بن عيينه و ابن عليه وأبن المبارك وعبدالرزاق الصنعاني ، وهذا التنوع يؤكد التواصل المعرفي والفقهي الذي كان يربط الإمام أحمد مع بقية شيوخ المذاهب الأخرى.

وعلى ذلك سار أئمة المذاهب في الطبقات الأولى من حيث الأخذ من بعضهم والطلب المتبادل بينهم .

ثالثا: التعايش الفقهي بين الحنابلة وبقية المذاهب .

التعايش الفقهي بين الحنابلة والمذاهب الأخرى مر بلحظات مدّ وجزر في العلاقة ،كان أهم تلك الأسباب :

١- البُعد السياسي في الخلاف وتحوله إلى سلطة ونفوذ تعزز وجود الفقهاء في السلطة أو تخرج مخالفيهم منها ، وقد تكررت تلك الحالة في فترة يكون الحنابلة هم من يقمع المخالفين كما حدث في عهد المتوكل العباسي ، أو أن يكونوا ضحية كما حصل في عهد الإمام أحمد بن حنبل مع المأمون والمعتصم والواثق ،ثم ما حصل مع ابن تيمية والمماليك في مصر والشام من إيذاء وإذلال واعتقال

٢- تحول الخلاف الفقهي إلى مفاصلة عقائدية ، تقتضي الحكم على المخالف بالضلال والبدعة ، وهذا ماجعل التعايش يفقد حيويته في فترة الصراع بين الحنابلة والمعتزلة وبينهم والأشاعرة .وهذا ما حصل في فتنة ابن القشيري عام ٥١٤ه في مواجهة ابوجعفر العباسي الحنبلي

٣- ومما يروى في ذلك أن أباحاتم بن خاموش فقيه أهل الري في عهد محمود بن سبكتكين كان يقول من لم يكن حنبليا فليس بمسلم [٣٠]، ولاشك أن هذا الأمر مؤداه إلى الضلال بسبب شناعة التكفير للمخالف على أساس الإنتماء المذهبي.

٤- عدم وجود علماء كبار يرجع إليهم الأتباع ويخففون تغول الصراع وتحوله إلى مواجهات دامية ، بل كان هناك صمت أو تشجيع أما الكبار من الفقهاء أهل الحكمة والفقه فكانوا يرفضون تلك الممارسات .

٥- التعصب المذهبي الذي تفشى في القرن الرابع والخامس خصوصا في العراق ،فقد تحولت بعض المناطق إلى ساحات قتال وصراع بين العوام المتعصبين لأئمتهم ومذاهبهم كما حصل في سنة ٣٢٣هـ

والسؤال الان هل الحنابلة جميعا كانوا على هذه الشاكلة من التشدد والتنفير؟

الجواب أن الحنابلة الذين ظهر منهم هذا البغي في الخلاف أو ما يحكى عنهم الشدة في الاحتساب ،لا يمثلون كل الحنابلة فهناك أكثر من سبعة وعشرين كتابا يجمع تراجم الحنابلة وفي عدد من الأقطار الإسلامية في الحجاز والعراق والشام وفلسطين ومصر ونجد وغيرها ،ولم يعرفوا بهذا الوصف من التشدد، كما أن الحنابلة نافحوا عن معتقد أهل السنة وحصل لهم بسبب ذلك عدة إبتلاءات ومحن سياسية مما جعلهم مستهدفون من السلطات آنذاك تحذيرا وتشويها،فجاءت بعض تصرفاتهم كردة فعل لهذا المواجهة لهم.

رابعا: التمازج التجديدي بين الحنابلة وبعض الفقهاء .

حصل هذا التمازج والتوحد الإصلاحي في بعض الفترات التاريخية عندما شكل شيخ الإسلام ابن تيمية فريقا من المجددين المصلحين في المجال الفقهي قاموا بجهود

مشكورة في حفظ السنة ونبذ التعصب والتصنيف الابداعي لعدد من الموضوعات وأقصد بهولاء المتأثرون بابن تيمية ،أمثال الذهبي وابن كثير وابن القيم وابن حجر وغيرهم ممن يمثل مدارس فقهية مختلفة ومع ذلك ينسبون لمدرسة التيمية..

موجز السيرة الذاتية

- **الاسم : مسفر بن علي بن محمد القحطاني .**
- **أستاذ مشارك في أصول الفقه قسم الدراسات الإسلامية والعربية ،جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.**
- **دكتوراه في أصول الفقه الإسلامي .**
- **ماجستير في السياسة الشرعية .**
- **خبير في المجمع الفقهي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي.**
- **خبير في القانون الدولي الإنساني التابع لمنظمة الهلال الأحمر الدولي أحد منظمات المؤتمر الإسلامي.**
- **خبير في مركز التميز البحثي لفقه القضايا المعاصرة .**
- **أستاذ زائر للمعهد الأوروبي للدراسات الإنسانية بفرنسا.**
- **عضو اللجنة التنفيذية في مركز التميز البحثي في الدراسات المصرفية والتمويل الإسلامي.**
- **عضو في الجمعية الفقهية السعودية .**
- **عضو لجنة المناصحة في قضايا التطرف والإرهاب بالمنطقة الشرقية.**
- **عضو لجنة الطعون والتظلمات بانتخابات المنطقة الشرقية للدورة الأولى.**
- **عضو مجلس الأمناء لمنظمة النصرة العالمية .**
- **عضو مجلس امناء الندوة العالمية للشباب الإسلامي.**
- **عضو مجلس أمناء مركز الأمير عبدالمحسن بن جلوي للبحوث والدراسات الإسلامية .**

- **عضو اللجنة الاستشارية لشؤون الدعوة والمساجد بالمنطقة الشرقية من التأسيس حتى ١٤٣٣هـ.**
- **عضو اللجنة الشرعية للندوة العالمية للشباب الإسلامي بالمنطقة الشرقية.**
- **عضو في اللجنة التأسيسية لجائزة الأمير محمد بن فهد لتوظيف ذوي الاحتياجات الخاصة .**
- **عضو اللقاء الوطني للحوار الفكري الخامس**
- **عضو الجمعية الطبية الفقهية السعودية.**
- **عضو الهيئة الاستشارية لموقع حقوق.**
- **عضو الهيئة الاستشارية لبيت الخبرة العالمي.**
- **نائب رئيس جائزة الإبداع والتمييز الأهلية للشباب.**
- **مشرف على موقع (الوعي الحضاري) على الشبكة العنكبوتية . وعنوانه www.alwaai.net:**
- **الكتب المؤلفة:**
- **١- منهج استنباط أحكام النوازل الفقهية المعاصرة .**
- **٢- مناهج الفتيا في القضايا الفقهية المعاصرة.**
- **٣-فقه الاستطاعة .**
- **٤- فقه الموازنات .**
- **٥- فقه الحقائق .**
- **٦- المرأة .. والعودة إلى الذات.**
- **٧- كلمات في الوعي.**
- **٨- أثر المنهج الأصولي في ترشيد العمل الإسلامي .**

- **٩- الوعي المقاصدي .**
- **١٠-الوعي الحضاري. مقاربة مقاصدية لفقه العمران الإسلامي.**
- **تحت الطبع :**
- **١- الضوابط الفقهية للمعاملات المالية المعاصرة.**
- **٢- مقاصد الاصلاح المدني.**
- **هناك عدد من البحوث العلمية المحكمة في عدد من المجلات العلمية .**
- **شاركت في عدد من المؤتمرات العلمية المحلية والدولية (أكثر من ٥٥ مؤتمرا).**
- **كاتب في جريدة اليوم و مجلة "الإسلام اليوم" و" الأمة" و " المجتمع". وصحيفة" الحياة " الدولية .**
- **هناك الكثير من المقالات في عدد من المجلات والصحف المحلية والعربية وعدد من اللقاءات التلفزيونية والإذاعية.**

العنوان : ص.ب : ١٥١٦ – الظهران ٣١٢٦١ – المملكة العربية السعودية.
ت. مكتب : ٨٦٠-٢٧٥٠ (٠٠٩٦٦٣)
الفاكس :٨٠٩٦٠٦٤ (٠٠٩٦٦٣)
جوال :٥٦٩٩٦٦٨٨٨ (٠٠٩٦٦)
البريد الكتروني: mam_١٣٩١@hotmail.com